

حين لفظه الباب الكبير أحس النار تلتفح وجبهه وتضغط على عينيه ، فاسرع ينشد الظل بجانب العهارة الضخمة المواجهة للديوان . ورفع رقبته يبحث بين الرؤوس المتدافمة عن رشدي افندي قبل ان يفقد الأمل . وخيل اليه انه يراه فزق زعقة ضاعت في اللغط المتصاعد ثم اندفع إلى امام ، فارتطم بعشرات الاكتاف والكروش . وانتسابه ضيق بمض والتصق لسانه بسقف حلقة ، ثم القى بنظرة اخيرة على الباب الأخير ومضى في الطريق .

كان عليه ان يقطع المسافة بين لاظوغلي وشبرا مشياً على قدميه . فلم يعثر على رشدي افندي ، وكان قد وعده بان يكون ركوبه على حسابه ، أتراه هرب ؟ إنه لم يجبره ولا يستطيع ان يجبره وما كان له ان يدفع ثمن زجاجة الببسي حين قبض فرق العلاوة

منذ قريب دون ان يحسب حساب الأيام ، ومع ذلك فلو كان معه ثمنها الآن لركب وهو مطمئن ..

وابتسم في مرارة وسأل نفسه : ترى ماذا يكون لو دفعت ثمن التذكرة فينتهي كل شيء وأستريح ؟

وثار رأسه وضج صدره ولجّ في فكر صاحب هادر . وعندما وصل الى المحطة لاحقاً رأى عشرات الموظفين ينتظرون الترام ، وشعر بشواظ النار تلهب وجهه فوضع يده على رأسه ومسح حبات العرق باصابعه ووقف متردداً حائراً وعاد يسأل نفسه :

وماذا لو ركبت واختفيت في زحام الراكبين ؟ وراقته الفكرة ، وحاول ان يذكر كم مرة ركب دون ان يدفع ثمن التذكرة . وودّ من اعماقه ان يكون الكمساري عجوزاً او سميناً او قصير النظر لا يراه وهو معلق في الجانب الآخر بعيداً عن يده . ولكن أماله انكسرت حين اقبل الترام فوجده - لسوء حظه - لا يتمشى وخطته ، وصوّب نظره إلى الكمساري فوجده يثب كالفأر هنا وهناك ، فدق قلبه وعاد الى العربة الأخرى ينظر اليها فلم يطمئن إلى نظرات المهيمن عليها ، فتراجع إلى وراء ، ولم يلبث ان شاهد عربة اخرى تقبل على المحطة في تناقل ، وإن هي إلا لحظة واخرى حتى كان قد اختفى بين الاجساد والانفاس والعرق الكريه .

وندّت عن صدره تنهيدة مستطيلة وأحس راحة عذبة، ولم بعد يؤلمه لكزات الراكبين ، واستدار برأسه بحسد موقع الكمساري فلم يستطع . ولكن خيل اليه انه يحادث السائق او قنع بركن من اركان الترام فوقف فيه او لعله اخذ مكان أحد الراكبين ، ومن يدري فقد يكون الآن غارقاً في سبات عميق .. أفمن الممكن ان يكون السائق نسيه في محطة سابقة؟! ... فجأة سمع صوته المبحوح : تذاكر.. تذاكر يا افندي . وغاص قلبه وانقطع حلمه الجميل ، وخشي ان هو حوّل رأسه ان يلحظه فتكون الطامة الكبرى ، وودّ من اعماقه لو ابتلعه الارض أو ذاب في الهواء أو خرّ مغشياً على نفسه أو مات في أشعة الشمس على رصيف من أرصفة الشوارع .

وانقطع الصوت والطرق على الرقعة الحشبية قليلاً ثم ...

ثم كأنما المكان ينشق عن الكمساري فيجده أمام عينيه قبل أن يفكر في إغماضها .

ومدّ يده الى جيبه يائساً واخرج آخر شلن اقترضه في آخر يوم من ايام الشهر . وعندما تسلم التذكرة ، تذكر أن عليه أن يركب من العتبة أو



من محطة باب الحديد تراماً آخر ليصل به إلى شبرا ، ومعنى ذلك ان يطير من الشلن ثلثه فماذا يبقى له ؟

ولم يستطع ان يقدر الباقي تماماً ولكنه أحسّ أن كل شيء ليس على مايرام ، وبدت له امرأته في النافذة تنتظره كما اعتادت ان تفعل كل يوم ، وتحت قدميها بنته فاطمة ، وعلى السلم ابنه كمال .. ثلاثة أفواه إلى جانب فيه تطلب القوت . ولقد تعودت دائماً ان تأكل في هذا الوقت ، والغريب ان الصغير منها يأكل ضعف الكبير !

وابتسم وبدأ يسأل من جديد : لماذا لا أدخل البيت فأجد احدهم نائماً ، وماذا لو غشيتهم غاشية فناموا جميعاً إلى غد ؟ ولكن أهذا حل ؟

ترى كم يكفيهم طعام يومهم هذا ؟ وماذا يأكلون ؟

وعندما قرع الترام بعد وقفة له أحس برأسه يقرقع ووجد نفسه في الميدان العريض طريداً ذليلاً . ولما استطاع ان يملك

زمام نفسه اخذ بحسب حساب الطعام بهدوء ومن جديد ، وبدأ
فقرر العدول عن الركوب مرة اخرى ، وأقسم ان يقطع
الطريق على قدميه مهما تكن الأسباب
أجل ماذا يأكلون ؟

وضرب الأخماس بالأسداس واخناط عليه الأمر ثانية ،
وعجب كيف يخطيء الناس في العدد الكبير وهو كلما صغر
كان لغزاً من ألغاز الحياة . واندفعت الافكار في رأسه
وتراكت السحب وتحرك لسانه يقول : خمسة أرغفة .. لا بل
اربعة .. ولكن ماذا لو كانت ثلاثة ؟ مستحيل اللهم إلا إذا
نام احدنا ، وانا لن انام .. اربعة تكفي بالكاء فكم يبقى معي ؟
هذه مسألة حساب فأين حلها يا فاطمة ؟ ولكن هل يكفي الحُبز
وحده ؟ ماذا اشتري بالباقي .. وهل يكفي ؟ والسجائر .. لعن
الله السجائر والذين يدخنونها و .. انا لا أسب احداً ...

ودار رأسه من جديد ، وشعر انه اخطأ حين فكر في
السجائر في مثل هذا الوقت ، وشرع يجتاز ثاثة أزمة هذا اليوم
بشأنها . وكانت المرة الأولى حين طلب الى فاطمة ان تشتري
له السجارتين «المهولوده» فخرجت بقرش وعادت بغير شيء ..
سامحها الله ! والمرة الثانية في المكتب حين استخلف من أجل
سيجارة واحدة عثمان الشواربي .. استخلفه بأبيه وأمه وجدوده
وجميع افراد أسرته الميامين ، والمرة الثالثة عندما ...
ولكن ماذا يأكلون ؟

وسار متعتراً يرفع إحدى يديه على عينيه ، وبالاخرى يمسح
عرقه . ولأول مرة يستشعر صداغاً يحطم رأسه ، وعند نهاية
الرصيف قابله بائع اليانصيب :

- يا صاحب النصيب !
- لست انا على أي حال
- السحب اليوم ٢٠٠ جنيه
- مرة واحدة ؟
- آخر ورقة يا بيه
- وانا ايضاً في آخر شلن
- خدها يا بيه

- خذ أنت روحي وحياة والدك !

وصرخت سيارة بجانبه فوثب يعبث الى الرصيف الآخر ،
ولأمر ما اضطرب حبل النظام ، فوجد نفسه بين خمس عربات
أوست ، وتصايح الجميع ، وعلا النفيق ، ولهت مضطرباً وجللاً
وكاد يسقط بين العجلات ، وشعر بأنه تافه ضئيل ، وأنشأت

العيون تفتحه في ازدياء عجيب حتى إذا أنقذ من ورطته بدا
له انه في حاجة الى كوب ماء و ... سيجارة !

ونظر حوالبه ودقق النظر ولكنه لم يكن يرى شيئاً ،
وخيل اليه انه يتلاشى في الضجيج الذي يملأ الارض والسماء ،
وحرك قدميه فاستشعرهما ثقيلتين ، وتذكر ابنه حين كان
يحاول السير فلا يستطيع . إن هذا الملعون يملأ البيت صباحاً
فلا يجمله هنا براقداً ، إنه دائماً يصبح من اجل الطعام ، وهو يأكل
كل شيء .. حتى اعقاب السجائر التي ينسى فيلقي بها الى الارض .
وبدأ يصعد الجسر في تهاقل ، واندفعت من تحتها قاطرة
فطراه دخانها ، ولما تبدد حاول ان يميز بين هذا الدخان ودخان
المهولبود .. فهو يحب هذا الصنف ، بعكس صديقه رشدي
اقندي .. اما عثا فلا يدخن إلا الرفيق الرفيع ، وفي
اوائل الشهر يلذ له ان يحرق علبة « امريكاني » أو علبتين ...
لعن الله الأمريكاني ولعن الانجليزي ولعن كل شيء .. إنه
يريد ان يعرف ماذا يأكل أو ماذا تأكل أسرته ؟ فلقد عرف
ان نصف ما معه يكفي لشراء الحُبز ، فكيف يدبر الباقي
الادام والسجائر ؟ هل يستطيع ان يتنازل عن أيها ؟ مستحيل !
فهما ألزم منه هو الى حياته نفسها ! أكان من الممكن ان يكون
في الشلن أكثر من خمسة قروش ؟ لماذا لم يحملوه عشرة مثلاً أو
تسعة أو حتى ستة ؟ لو كان هذا لاستراح الآن .. ولكن هل
كان حسني افندي يفرضه إياه لو كان كذلك ؟

إن رأسه ثقيل وفي حاجة الى شيء .. أين بائع الدخان ؟
ليكن ما يكون ، فهو يريد ان يفكر في هدوء ، ولا بأس إذا
ضحى بالتعريفة المكسور في سبيل دخينة عربية .. فهو عربي ،
ووقف يشعلها من القنديل الصغير فحانت منه لفته الى دكان
الجزار ، وتأمّر عليه خياله ، وصوّر له الهم « طبلية » تنوء
بصينية البطاطس والضلع المحمر .. كلا فهو يحب مشويماً ،
ولكن لا ضير إذا جاءه محمراً ، أما لو كان مسلوفاً فلن يطيب
له إلا في العيد وبجانبه الشوربة الدافئة والثريد و ..

يا لله !!

وأغمض عينيه برهة ، وعندما استطاع ان يفتحها وجد
عيني الجزار تحدفان فيه فأسرع يبتعد عنه وطرده من رأسه
فكرة الثريد والضلع المشوي . ولكن هل يمنعه احد من ان
يفكر ؟ ولماذا لا يجد الحرج حين تصل الى خياشيمه رائحة الطعمية ؟
أفيشتريها فيستريح ؟

إن زوجته ستصرخ فيه إن حملها اليها بعد حادثة امس ،

وستطالبه بالفجل والجرجير والبطيخة أو الشمامة أو على الأقل برطلي خيار !!

أهكذا يعز عليه ان يشتري أي شيء؟ لماذا تزوج في هذه الايام والدنيا كرب والغلاء غول رهيب .. لقد قيل له انه سيستريح فلم ينعم براحة قط .. حتى في ليلة زفافه غاظته امراته حين ابت ان تمسك بأصابعه بعد ان مدّ اليها يده ، ربما كانت تكرهه .. فهل تحبه الآن ؟

لولا انها ام لولديه لتغير موقفه منها .. فهي ملعونة يشهد الله : ولا تحاول مرة واحدة ان تشكره ، حتى حين تكون راضية لا تنسى ان تسخر منه ، والغريب انها ليست كما تظن .. إنه يخشى ان تشب بنته فاطمة مثلها ؛ فالدلائل كلها تنطق بانها صائرة الى ان تكون صنواً لها !! أما كمال فسيجعل منه رجلاً .. رجلاً بمعنى الكلمة ، وسيعلمه وسيدفع به الى الجامعة ، وسيفعل له كل شيء ليكسب كسباً ، وسينصحه بالألا يدخن ، كما سيحرص على ألا يكون مثل اخته ، هذا الولد لطيف .. ولكن عيبه الوحيد صراخه و .. نهجه .. إنه يحب الأكل كثيراً .. وهو كذلك .. وفي الحق من يكرهه ؟

مرة اخرى .. ماذا يأكلون ؟

أسئطل يبحث بغير هدى ؟

ماذا لو ترك كل شيء حتى يعود الى منزله ؟ ان احداً لا

يجوع حتى كلاب الأرض !!

وطواه الشارع الكبير في زحامه ، ولم يحاول إلا ان يتطلع الى دكاكين البقالة ومحلات الأكل . وبدا امامه شبح امراته وهي تنتظره في الشباك وتحت قدميه فاطمة بينا يقف ابنه كمال على السلم ليقطع عليه الطريق . وتنهى في حسرة .. فقد كان من الممكن ان يبقى معه شيء لو لم يكن عنده هذان الابنان ، إلا ان زوجه تريد العيال ليملاوا عليها الدار، ونسيت دائماً - لعنة الله عليها - ان الاولاد تتناسب مع ميزانية الأب تناسباً عكسياً، ومع ذلك .. ألم يكن يجدر بها ان تنتظر بعض الوقت؟! ان الساعه توشك ان تفارق الثالثة فكيف زوجه الآن ؟ أتراها لا تزال وراء الشيش ؟

وابتسم في بلاهة .. انها لا بدتني نفسها بطعام وفيه . ليس من اللازم ان يكون دسماً ، وإنما يجب ان يكون مما يفتح الشهية ؛ ولو كان الامر بيده لآثر ما يصدّ النفس ويغفها فيستطيع ان يوفر شيئاً ...

والمدهش بعد ذلك ان تعتب عليه دخوله الدار بلا شيء ..

يد وراه ويد امامه ! حقاً كلٌ ورزقه؛ ولكن هل يضمن هذا الرزق كما يضمنه هذا القبط الذي يتمسح بدكان ذلك الخاتي ؟ وهذا الكلب الذي يتربص بالعظم الدوائر ..

تباً لرائحة الشواء !

لمماذا لا يقتحم الدكان فيأكل ويأكل ويأكل حتى ينفجر كرشه فيموت ويستريح ؟

شيء واحد يمنعه عن ذلك .. ليس الشرف على أي حال ولا الخوف، وإنما امرته ، إذن فهو مجبها ؟ ومن قال غير ذلك؟ ان الشيء الذي يحز في نفسه ان احداً منها لا يرثي له والجميع فيها يرهقونه بالطلبات .. دائماً هات هات .. كان من المستطاع ان يأتي لهم بكل شيء لو كان الله وسع عليه قليلاً .. فماذا يفعل ؟ ان الطلبات لا تقطع والتمن لا يني يرتفع حتى ارقه الارتفاع .. يا هذا الكلب اندي يقتحم دكان الجزار في جراءة . إن صاحب الدكان لا يلمحه ولا يتطلع إليه . إنه يهوي على الكتلة الحمراء بعنف .. من صاحب النصيب فيها؟ لن يكون هو على اي حال ! ولكن هذا الكلب .. رباه !! ما اوقعه !! لقد اختطف ماسورة وهرب .. إنها كبيرة عامرة .. هل يستطيع ان يجري وراءه فينتزعها منه ؟ إنه لا يريد ان يردها لصاحبه ...

وضحك ..

ضحك في عمق هذه المرة .. فلقد غاب عنه شيء هام ، وشكراً للكلب اللص .. فقد فتح امامه سبيل الحياة .. إلى قبل العشاء على اقل تقدير ، ولن يشقى الى هذه الفترة ، وسيأكل .. سيأكل ثويداً رغم انف الجميع ، وسيشبع اولاده ، وسيمتليء هو ، وسترضى زوجه وإن كانت ستقابله بالسخرية والغمزات .

وأصلح من رباط عنقه وشدّ قامته واندفع إلى دكان الجزار وتنخض مرة او مرتين ، ثم رفع صوته حتى لا يضطر إلى إعادة ما يقول ..

- السلام عليكم !

- عليكم السلام .. طلبات البية ؟

- لا لاشيء .. وإنما والله بهذين القرشين إعطاني عظمتين للكلب . وحدّق فيه الجزار ملياً فأطرق إلى الأرض ، ولم ينطق بعد ذلك بحرف حتى استقبلته زوجه بالزعيق المألوف . ولم يحاول ان يردها لأنها كان يفكر في واحدة هوليدود .

احمد كمال زكي

القاهرة

من الجمعية الأدبية المصرية